القصص القرآني: دراسة في دلالة اختلاف الألفاظ عند فاضل السامرائي

The Qur’anic stories: A study of the significance of the difference of words according to Fadel Al-Samarrai

وليد ورييح[1]، إبراهيم مناد[2]

[1] المركز الجامعية مغنية–تلمسان (الجزائر)، الإيميل walidrouibahosted23@gmail.com

[2] جامعة تلمسان (الجزائر)، الإيميل المهني للباحث الثاني: mennadbrahim@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021-12-31 **تاريخ القبول**: 2022-12-25 **تاريخ النشر**: 2022-12-31

ملخص:

نتناول في هذه الورقة البحثية استعراضا لجهود علم من أعلام تدبر القرآن الكريم واستخراج لطائفه اعتمادا على قواعد اللسان العربي وهو فاضل السامرائي، لنكشف عن توجيهاته لدلالة اختلاف ألفاظ القرآن الكريم في القصص القرآني من حيث الإجمال والتفصيل والتجرد والزيادة، مع محاولة التعقيب عليها وعرضها على علماء التفسير السابقين وبعض المجتهدين المحدثين لنصل إلى جملة النتائج أبرزها إيمان السامرائي الراسخ بأن كل عدول في بنية اللفظة القرآنية له مسوغ دلالي تحت مظلة المقام والسياق.

الكلمات المفتاحية: قواعد اللسان العربي؛ القصص القرآني؛ ألفاظ القرآن الكريم؛ السياق.

Abstract

We aim in this study to review the efforts of a scholar who gave his academic life studing the Holy Qur’an , and extract its miraculous linguistic secrets based on the Arabic grammer : which is Fadel al-Samarrai.so we will reveal his opinions to the significance of the different words in the Qur’anic stories in terms of totality, details, abstraction and additions, with an attempt to comment by comparing it with the Previous and modern interpretations . Finally, we can say that the principal idea in his works is: every deviation in quranic 's morphological structure has semantic explanation in it's own context.

Keywords: based on the Arabic grammer; Stories Qur'ani;; in quranic 's morphological in quranic 's morphological context

المؤلف المرسل: وليد روييح، **الإيميل**: walidrouibahosted23@gmail.com

1- مقدمة:

لا يعزب عن بالنا، أن قصص القرآن الكريم يتّسم بسموّ غاياته وشريف مقاصده ورفعة مراميه، وإنك لتراه يساق حينا مساق الحوار، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار، كما اشتمل على أحاديث الرسل مع أقوامهم، والصّالحين وأعاجيبهم.

وقد سكب الله سبحانه وتعالى هذا كلّه، في قوالب بديعة تثير الإعجاب وتأخذ بالعقول والألباب، مما جعل أرباب البيان وأفذاذ اللّسان العربي من نحاة ومفسّرين يسعون جاهدين ليقطفوا من ثماره اليانعة، ويستظلّوا بظلاله الوارفة، واقفين وقفة المتدبّر لآيات الذّكر الحكيم، مستلهمين منه الدّرر، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

كثيرةٌ هي الآيات التي تختلف في جوانب من صيغها، فنظلّ نبحث عن توجيه لها، وننقب في أسفار المتقدمين والمتأخرين عن وجه الإعجاز فيها.

وهذا ما دفعنا في هذا المقال إلى محاولة تبيان سرّ هذا التنوع البديع في ألفاظ القصص القرآني، عند عالم في هذا الباب، لا ينكر فضله ولا يجحد جهده، هو فاضل السامرائي.

الإشكالية المطروحة:

لا جرم أنّنا ونحن نتلو قصص القرآن، لفت انتباهنا ورود القصّة الواحدة في أكثر من موضع، بعبارات تختلف بين سورة وأخرى، منها ما جاء موجزا ومنها ما جاء مبسوطا، ولا ريب أن هذا الاختلاف ليس عبثا بل له أغراض بيانيّة وبلاغيّة، استخرجها الرّاسخون في العلم من آي التّنزيل العزيز، ومن بين أولئك الذين أولوا اهتمامهم بهذه القضايا؛ فاضل السامرائي.

فكيف فسّر السامرائي هذا الاختلاف؟

هل جاء بالجديد؟

وبعبارة أخرى هل استحدث قراءة جديدة لاختلاف الألفاظ في القصص القرآني؟

هل يمكن عد تفسيراته وتوجيهاته مذهبا مستقلا في هذا الباب؟

أسئلة وأخرى، نرفع عنها ستار الإبهام أثناء هذا البحث الذي طرحته في شكل ثنائيّات.

2-تبِعَ واتَّبَعَ في قصة آدم عليه السلام:

كثيرا ما قرأنا قصة آدم عليه السلام، وقلوبنا تهفو إلى ما فيها من أسرار أوّل الخلق، ومبدإ الحياة على هذه الأرض، وما أكثر ما وجدناها في عديد سور القرآن، بطرائق مختلفة وأساليب شتى، ما يجعل صيغ التّعبير عنها تختلف أحيانا، وتتوافق أخرى، من ذلك، الاختلاف بين تَبِعَ التي في البقرة واتَّبَعَ التي في طه وإليك بيان هذا:

قال تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وقال في سورة طه﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾.

جاء الفعل في سورة البقرة ثلاثيا مجردا من زنة فَعِلَ، بينما كان في سورة طه خماسيا مزيدا من باب افْتَعَلَ، وهذا الانتقال من صيغة المجرد إلى قالب المزيد يفتح بابا من الأسئلة حاول المفسرون منذ الرعيل الأول ولوجه والكشف عن علته، وقد تضاربت آراء المفسرين وعلماء العربية، في توجيه هذا الاختلاف، فذهب قوم منهم إلى أنهما صنوان، وليس هناك فرق دلالي بينهما، وعلى رأسهم الكرماني الذي أشار إلى أن اتَّبَعَ في سورة طه جاءت موافقة لقوله تعالى قبل ذلك ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾.[طه 108.] (الكرماني، دت)

وهذا يدل على أنه -رحمه الله-، لا يرى فرقا دلاليا بينهما، فصيغة المزيد التي في طه، خالفت آية البقرة اتباعًا للآية التي قبلها في طه ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾، ومنه فلا ملمح دلالي عنده، اللهم موافقة الآية السابقة.

وقد خالفه البقاعي في نظم الدرر، إذ رأى أنه استعمل "تَبِعَ" في البقرة على زنة فَعِلَ بالصيغة المجردة المخففة، ليدل على أنه أدنى اتباع، ولهذا كان الجزاء بنفي الخوف فقط (البقاعي، 1984).

ويريد البقاعي أن الفعل "تَبِعَ" في البقرة جاء ليدل على جزاء الاتباع الأدنى أي أن من يَتْبَعُ هدى الله دون مشقة؛ فعاقبته ألا يخاف ولا يحزن، ومعلوم أن الحزن يكون على ما فات والخوف على ما هو آت، وليس ثمة تكريم للمؤمن مثل هذا التكريم.

وُيفهم من قوله هذا أن الفعل المجرد ينم عن الاتباع؛ الذي ليست فيه مشقة كبيرة بعكس اتَّبَعَ في سورة طه فإن افتعل فيها يدل على المكابدة والنصب.

وليس هذا ببعيد عما أقره السامرائي أيضا، والذي برره بأن المقام في سورة البقرة، جاء لتكريم آدم عليه السلام، مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[البقرة 29]

فإن هذه الآية قد جاءت قبل البدء في قصة آدم عليه السلام، وهي تدل على التكريم، ألا تر ى أنه قال إنه خلق السماوات والأرض لبني آدم وهذا غاية التكريم ومنتهاه (السامرائي ي.، 2002) فلا يستريب عاقل أن هذا تشريف لآدم عليه السلام ولبنيه، فكل ما في الأرض جميعا خلقه الله لنا، فهو إيذان من الحكيم جل جلاله، أن آدم عليه السلام، ذو مقام رفيع عنده، وتبعا لهذا المقام _أعني مقام التكريم _أتى الفعل "تَبِعَ" على مثال فَعِلَ مجرّدا ذلك أنه:

"اكتفى في البقرة بالأخف من الحدث، ولم يشدّد عليهم تخفيفا على البشر مراعاة لمقام التكريم" (السامرائي ف.، 2002)

وقد يظن ظان أن إهباط آدم عليه السلام من الجنة، يمس مكانته عند الله، وهذا بعيد جدا ذلك لأنه عليه السلام نبي كريم قد أورد الله عز وجل في البقرة خبره وجو التكريم ظاهر ومقام التشريف فيها جلي واضح؛ لذا جاء الفعل مخففا حتى يتناسب مع تكريمه وتكريم ذريته فالتخفيف ههنا له نكتة بديعة.

بينما لم يكن المقام كذلك في سورة طه، فجاء الفعل مزيدا مشدّدا بصيغة افتعل ومآل ذلك عند السامرائي، مقام التّشديد والمبالغة في سورة طه، والدّليل على ذلك آخر الآية في "طه" يباين آخرها في "البقرة".

فقد انتهت الآية في البقرة بقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة 38] أما في سورة "طه" فقد انتهت الآية بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه 123] (السامرائي ي.، 2002)

أوضح السامرائي أنه وإن كانت القصة تتحدث في السورتين عن أمر واحد هو إهباط آدم عليه السلام من الجنة، إلا أن المقام في السورتين مختلف؛ لأن الغضب والعتاب والتشديد غالب على سورة طه، وحتى يكون الكلام كله موافقا لمقتضى حال السورة فقد جاء الفعل مزيدا مدغما، وهذا نستشفه في يومياتنا فإننا حين نكرم إنسانا نتحدث عن أخطائه حال التكريم بصيغة لا تخلو من الخفة والكلام اللين.

وعلى النقيض من ذلك، إذا كان المقام مقام عتاب وغضب فإننا نستعمل من الصيغ أطولها وأشدها وليس ثمة أنسب من الفعل المزيد المدغم لهذا الغرض كما هي الحال في الآية الكريمة.

وهذه لفتة عجيبة أن توافق الصيغة الصرفية مقتضى الحال فيكون التكريم مدعاة للفعل المجرد المخفف، والفعل المزيد مظنة التشديد.

3-الفرق بين خطاياكم وخطيئاتكم:

والأمر نفسه في قصّة موسى عليه السلام، التي ذكرت في البقرة والأعراف حيث نلحظ اختلاف البنية الصّرفية بينهما، فقد قال عزّ مِنْ قائل في البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة: 58]، فقال خطاياكم في "البقرة" بينما قال في "الأعراف" التي في سياق التّأنيب والتّقريع ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف 161] ومآل ذلك؛ أنّ خطاياكم جمع كثرة، وهذا أنسب لمقام التّكريم، إذ المقصود مهما كانت خطاياكم كثيرة فإنّا نغفرها لكم، وأما خطيئاتكم في "الأعراف" فهي جمع قلّة وهذا أجدر للتّقريع واللّوم والتّأنيب" (السامرائي ي.، 2002)

نستشفّ مما سلف ذكره، أن المناسبة بين المعنى الصّرفي، وسياق الآيات في غاية الإعجاز، فقد استعمل صيغة جموع الكثرة في موضعها وهي "خطايا" على وزن فَعَالَى على رأي الكوفيّين، أو فَعَائِلَ على رأي البصريّين " (الأنباري، 2003)

"وجاء بالصّيغة الأقلّ "خطيئات" وهو في معرض لومهم وعتابهم، لأنّ جمع المؤنّث السّالم يكون للتّعبير عن القليل، وهذا معلوم عند النّحاة، قال الرّضي في شرحه على الكافية" وجمع القلّة أفعل، وأفعال، وأفعلة، وفعلة، والصّحيح " (الاسترباذي، 1978)؛ أي جمع التّصحيح مذكّرا كان أو مؤنّثا؛ فالصحيح هو الذي يقابل جمع التّكسير أو هو الجمع السّالم، يدلّ على القلّة.

وهذا مألوف عند العرب في كلامها، بل كانت تعتمده في نقدها، وما سوق عكاظ في الجاهلية إلا شاهد على ذلك، فقد استمع النّابغة الذبياني إلى شعر حسّان بن ثابت الذي أنشده إيّاه :

لنا الجَفَناتُ الغُرَّ ا يلمعن بالضُّحى وأسيافُنا يقطرن من نجدة دَما

فقال له النّابغة أنت شاعر ولكنّك أقللت جفانك وسيوفك" (العسكري، 1984)

استخلص نفر من علماء العربيّة من هذه الرواية، أنّ الجمع الصحيح إنما يكون للقلّة، فاستعمال حسان للجفنات، وهي جمع مؤنّث سالم خطّأه فيه النّابغة، وهذا وجه من الوجوه التي استدلّ بها السامرائي في توجيه هاتين الآيتين بيانيا، فالخطايا إنّما جاءت في قالب صيغة منتهى الجموع، ليدلّ على أنّ الله عز وجل رغم كثرة ذنوبهم ووفرة آثامهم فقد تجاوز عنهم، وغفرها لهم، رحمة بهم وتكريما.

وأمّا المقام الآخر فإنّه مقام تقريع وعتاب لهم، فلا يعقل أن يؤنّبهم ويغلظ عليهم في القول ثم يغفر لهم خطاياهم الكثيرة، فالمقام يقتضي أن يتحدّث عن غفران بعض الذّنوب، حتى يتذكّروا ما بقي من معاص فيكون رادعا لهم لأن ينتهوا عمّا يفعلون.

وهذه لفتة بديعة في التّوافق بين قواعد الصّرف العربيّ ومعاني القرآن العظيم.

4-الفرق بين سَاحِر وسَحَّار:

تختلف الصّيغ في القصّة بين سورة "الأعراف" و"الشعراء"، فجاء في الأعراف باسم الفاعل "ساحر "في قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾. بينما قال في "الشعراء" ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾ بصيغة المبالغة.

القائل في هاتين الآيتين واحد وهم الملأ من قوم فرعون، إلا أن الله عز وجل جاء في الأعراف باسم الفاعل "ساحر"ثم عدل عنها في الشعراء إلى صيغة المبالغة "سحار"وقد تفرقت توجيهات العلماء في ذلك

فرأى الزمخشري أن مسوغ هذا العدول والانتقال من اسم الفاعل إلى المبالغة سببه أن ملأ فرعون أرادوا أن يطمئنوه ويسكنوا من قلقه موافقة له فقال في كشافه: "فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة، ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه." (الزمخشري، 1407) فالزمخشري يسوغ هذا الانزياح الصرفي بإعطائه دلالة اجتماعية سياسية وهي السير في ركب ما يريده فرعون تهدئة لروعه بل وخوفا من بطشه.

وليس ببعيد عما ذكره الزمخشري ما أورده الهنداوي في هذه المسألة حين قال إن الإتيان بسحار في هذا الموضع، دال على مقابلة الملإ وصف فرعون لموسى بالسّحر وتأكيده على أنه يريد أن يخرجه من أرضهم، (بسحره) فناسب ذلك أن يقابلوا ذلك بالوصيّة بالإتيان بكلّ سحّار عليم، يفوق سحره سحر موسى (الهنداوي، 2008) أي أن الغرض من مجيئ صيغة المبالغة"سحار" في الشعراء عندهما هو التأكيد والسير مع ما يرضي فرعون.

أما ابن عاشور في التحرير فلا يرى أن "سحار" صيغة مبالغة وإنما هي من أسماء المهن حيث قال : وَالسَّحَّارُ مُرَادِفٌ لِلسَّاحِرِ فِي الِاسْتِعْمَالِ لِأَنَّ صِيغَةَ فَعَّالٍ هُنَا لِلنَّسَبِ دَلَالَةً عَلَى الصِّنَاعَةِ مثل النجّار والقصّار (ابن عاشور، 1984، صفحة 124) ، يريد ابن عاشور-رحمه الله-أن بنية "سحار" التي على زنة فعال تدل على الحرفة كقولنا فلان نجار أو حداد، وليس بخفي أن صيغة فعال تكون للمبالغة كما

تكون من أسماء الحرف والصناعة، فالملأ يريدون أن موسى عليه السلام لكثرة اتصافه بالسحر أصبح السحر فيه لصيقا كما تصبح الحرفة ملازمة لصاحبها.

بينما ذهب السامرائي إلى أن علة هذا الاختلاف السياق فسياق سورة الشعراء فيه قوّة وتحدّ مباشر بين موسى عليه السلام وفرعون، فناسب استعمال صيغة المبالغة في الشعراء مراعاة للمقام " (السامرائي ي.، 2002)، لأن في صيغة المبالغة من القوة ما ليس موجودا في اسم الفاعل، وبالأخص صيغة "فعّال" التي وردت في سورة الشعراء، والمتأمل في الجو العام لهذه السورة يدرك أن فيها من القوة والتحدي شيئا كثيرا لذا جاءت هذه الصيغة في قالب المبالغة في الشعراء بالذات.

بل يحيل ذلك إلى العدد، وبيانه أن لفظة ساحر، ذكرت في الشّعراء عشر مرات وفي الأعراف سبعا، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة (السامرائي ف.، 2002)، والإشارة إلى العدد انفرد بها السامرائي –في حدود ما نعلم–إضافة إلى أن في صيغة المبالغة فعال ما ليس في اسم الفاعل من القوة وهذا يمكن أن نعرفه صوتيا، إذ لا تخلو صيغة اسم الفاعل من خفة عكس صيغة المبالغة.

ما يزال المقام والسّياق يغلب على تأويلات السّامرائي، وتفريقه دلاليا بين هذه الألفاظ أو الصّيغ، فالصّيغة تتبع ما في السورة من ألفاظ، فلكأنّها عقد أخّاذ من الصّيغ، فيه اسم الفاعل في موضعه، وفيه عقد آخر من صيغة المبالغة، فإذا بالقواعد تستحيل آلة مطواعة، توصل المعنى المراد في أكمل وجه، وأبدع قصد.

5–الفرق بين تَسْطِع وتَسْتَطِع:

ومن عجائب قصص القرآن، قصّة موسى عليه السلام والخضر، حيث صوّر فيه القرآن قصّة رجل صالح يعلّم نبيّا، بل رسولا من أولي العزم، ولا ريب أنّنا ونحن نقرأ هذه القصة، استرعى انتباهنا الاختلاف بين الصّيغتين "تَسْتَطِع" في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾. وقوله أيضا: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

رأى ثلة من المفسرين أنهما بمعنى واحد فهذا السمرقندي في بحر العلوم يقول "تستطع وتسطع بمعنى واحد، يقال: اسطاع واستطاع" (السمرقندي، 1993، صفحة 359) إلا أن السامرائي خالف ذلك جملة وتفصيلا

فالباعث على ورود الفعل في الآية الأولى على زنة تَفْتَعِل، وعلى الاقتطاع منه في الثّانية بحيث جاء على صيغة تَفْعِل _عند السّامرائي _، أنه جاء مراعيا في الأولى لمقام التّفصيل، وهذا بلا ريب يناسبه ذكر الصّيغة كاملة دون حذف أو اقتطاع.

إلا أنّه حذف تاء الافتعال في الثّانية، وفقا لمقام الإجمال، إذ فارقه بعدها ولم يحدث بينهما حوار آخر (الزمخشري، 1407).

وليس ببعيد عما سلف ذكره، ما ارتضاه ابن كثير رحمه الله تبريرا لهذا التنوع اللفظي حين قال "وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَالَ: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} فَقَابَلَ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ، وَالْأَخَفَّ بِالْأَخَفِّ" (كثير، 1999)

وتفصيل الأمر أن سيدنا موسى عليه السلام، لما لقى الخضر، أراه أمورا أنكرها، وآتاه أشياء استغربها، خَرْقٌ لسفينة المساكين، وقتل لغلام دون وجه حق في نظر موسى عليه السلام، وإقامة جدار في قرية أبت تضييفهما، فهي أمور لا يستسيغها من لا يدرك الحكمة وراءها، فقد استثقل موسى عليه السلام هذه المواقف، وضاق بها ذرعا، فجيئ بالفعل تاما دون حذف، حتى يكون أمارة على نفسية موسى عليه السلام في ذلك المقام.

فلما علم موسى عليه السلام كنه هذه الأفعال، وأن الخضر لم يفعلها من تلقاء نفسه بل كانت وحيا من عند الله، سكنت نفسه وذهب ما كان يجده، جيئ بالفعل محذوف تاء الافتعال لتكون أيضا علامة على زوال الإشكال الذي كان يكتنفه عليه السلام.

وليس الحذف والذّكر في ألفاظ التّنزيل العزيز من باب الزّينة أو الزّخرفة التي تأتي تجنّبا لإعادة الصّيغ وتكرارها فحسب، بل إنّ حذف حرف أو ذكره يطير بك من معنى إلى آخر، وهذا ذروة سنام البيان القرآنيّ، فالتّوافق بديع بين الحرف والمعنى، فذكره ينبئ بمعنى التّفصيل والتّطويل، وحذفه علامة على الإجمال، فهذه أبّهة القرآن وفخامة التّنزيل العزيز، وفتح من الله عز وجلّ على السّامرائي، الذي بسط لنا هذه الدّرر؛ فالمقام هو مفتاح من مفاتيح فهم ألفاظ القرآن العظيم.

6-الفرق بين اسْطَاعُوا واسْتَطَاعُوا:

قصّة ذي القرنين من أمتع قصص القرآن، لما فيها من حسن السّرد، ومتانة السّبك، ولعلّ أمتع ما فيها، قصّته مع يأجوج ومأجوج والسدّ، التي جاءت معجزة في أسلوبها، مبهرة في نظمها، وأعجز ما فيها هما الفعلان الماضيان اسطاعوا واستطاعوا في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧﴾، [الكهف 97].

فالأول جيء به مخففا من تاء الافتعال، والثاني جاء على أصله، وقد اختلف المفسرون في توجيه الفرق بينهما، فمنهم من رأى ألا فرق، فهذا البغوي يؤكد في معالم التنزيل " أنّهما بمعنى واحد" (البغوي، 1411) ووافقه في ذلك ابن الجوزي بقوله "فَمَا اسْطاعُوا أصله: فما «استطاعوا» فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبُّوا التخفيف فحذفوا" (الجوزي، 1422)

فهذا يعني أن ابن الجوزي رحمه الله يرى أن هذا الاختلاف لا يعدو أن يكون صوتيا صرفا، فالغرض منه هو التخفيف لتوافق الطاء والتاء في المخرج.

قال الإسكافي في الدرة: "للسائل أن يسأل عن (اسْطَاعُوا) في الأولى، فلم خصّت بحذف التاء، دون الثانية في جلّ القراءات.

والجواب أن يقال: إن الثانية تعدّت إلى اسم، وهو قوله عز وجل: (نقباً) فخفّ متعلقُها فاحتملت بأن يتمّ لفظها، فأمّا الأولى فإنها تعلّق مكانُ مفعولها بـ "أن " والفعل بعدها، وهي أربعة أشياء: أنْ، والفعل، والفاعل، والمفعول الذي هو الهاء، فثقل لفظ "استطاعوا" وكان يجوز تحقيقه حيث لا يقارنه

ما يزيده ثقلاً، فلما اجتمع الثقلان، واحتمل الأول التخفيف ألزم في الأول دون الثاني الذي خف متعلّقه" (الإسكافي، 2001، صفحة 889)، والمراد من هذا ،أن التخفيف في قوله "اسطاعوا" مرده تعلقه بأن المصدرية والفعل المضارع وفاعله ومفعوله، فهذا التتابع في المتعلقات هو سبب التخفيف على حد تعبير الخطيب الإسكافي. أما علة إتيان الفعل "استطاعوا" تاما غير منقوص من تاء الافتعال، هي خفة متعلقه، فقد تعلق الفعل "استطاعوا بالمفعول به نقبا وهو اسم مفرد على عكس "اسطاعوا" الذي تعلق بجملة فعلية.

وقد عالج السامرائي هذه القضية في كتابه "بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني"، وأوضح فيها الفرق بين الصيغتين بأنه لما كان الصّعود على السدّ أيسر من نقبه خفّف الفعل فقال ٱسطَٰعُوٓاْ ولما كان نقب السّد فيه عُسْرٌ ومشقّة أكبر جاء بصيغة الفعل الطويلة ٱستَطَٰعُواْ " (السامرائي ف.، 2006)

وليس توجيه السامرائي لهذه الآية بدعا من القول، فقد اغترفه من معين من سبقه من المفسرين، نذكر منهم البقاعي الذي أقر أن "زيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل" (البقاعي، 1984)

قد يبدو بادئ الأمر أن هذا الاختلاف إنّما هو من باب التّفكّه في استعمال الألفاظ، والتّنوع في التّعبير بها، فيظن ظان أن اسطاعوا واستطاعوا لا فرق بينهما إلا تاء الافتعال، التي جاءت اتقاء للتكرار، والحقيقة أن السّامرائي لا يعترف بهذا الطّرح بل ينسفه نسفا، فحين تكون الصّيغة الصّرفية للكلمة قالَبا لمعناها، وصورة مطابقة لدلالتها ومبناها، فهي البلاغة التي تتجاوز عَنَانَ السّماء، وكأنّ الذّكر الحكيم يَحْمِلُنا على العيش مع هذه الآيات، وتدبّرها بكل ما لدينا من آلات، حتى قوالب الكلمات وصيغها وأوزانها التي تستحيل في القرآن سبائك دلالية، توافق المبنى ومعناه.

7-الفرق بين نَبْغِي ونَبْغِ:

جاء في سورة يوسف الفعل نَبْغِي بذكر الياء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيْلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف 65].

وجاء في الكهف محذوف اللام قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف 64].

وقد اختلف أولو العلم في تبرير الفرق بين الصيغتين، حيث رد بعضهم الفرق إلى التخفيف دون أن يكون هناك ملمح دلالي يسوغ هذا الاختلاف، وقد ناصر هذا الرأي الزجاج إذ يقول : "فأما قول الله عزَّ وجلَّ: - (ذلك مَا كُنَّا نبغِ)، فهو كقوله (يُنَادِ المنَاد)

و(يدع الداع)، فهذه الياءاتُ من نحو (نَبْغِ) حذفت لأن الكسرة دلت على الياء فحذفت الياء لثقلها، وليس الوجه عند النحويين حَذْفها" (الزجاج، 1988)

فأنت ترى أنه جعل علة حذف الياء اتقاء الثقل، وهو التخفيف حملا على نظيراتها من الصيغ نحو يدع الداع ويناد المناد، وبهذا فالزجاج لا يقر بأن ثمة اختلاف بين صيغتي "نبغ" ونبغي"

بينما تأويل الاختلاف في اللفظتين عند السامرائي، أنّه في قصّة يوسف عليه السلام، كان الطّعام هو بغيتهم وغايتهم، فناسب ذلك ذكر الفعل كاملا، ولما كان موسى عليه السلام وفتاه يبغون الخضر لا الحوت، حذف من الفعل لينبّه أنّ الحوت ليس غاية في حدّ ذاته " (السامرائي ف.، 2006)

فالغرض من الاقتطاع والحذف الواقع في سورة الكهف التي وردت فيها قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح إنما جاء على حسب رأيه، من باب لفت الانتباه، فكأن القارئ حين يتلو هذه الآية، ويصل إلى "نبغ" فيقف عليها محذوفة اللام، يلاحظ أن الدلالة مختلفة عما ورد في قصة يوسف عليه السلام، حيث كان الفعل على أصله، لأن الطعام هو مطلبهم وبغيتهم، بيد أن الأمر على غير ما هو عليه

في قصة موسى عليه السلام، فلم يكن الحوت إلا علامة على مكان التقاء موسى بالخضر، وحتى لا يلتبس هذا بذاك كان حذف الياء.

أو لعل الحذف كان دالا على أن موسى عليه السلام في عجلة من أمره ليلقى الخضر كما نوه بذلك محمد شملول الذي قال: "وجاءت كلمة نبغ محذوف منها ياء الفعل الأصلية، حيث إن أصلها نبغي، ويوحي حذف الياء وانكماش الكلمة، بالعجلة التي كان عليها موسى عليه السلام إذ كان يريد أن يلتقي بالعبد الصالح في أسرع وقت" (شملول، 2006). إن ما جاء به محمد شملول فهم آخر ورؤية إضافية دلالة الحذف فيها هي السرعة والعجلة، فالمسرع العجول يحاول قدر المستطاع أن يوجز في كلامه ويقتطع من حديثه، وهذا سبب مجيء الفعل محذوفةً ياؤه.

وعلى كل فإن الحذف من الكلمات في التنزيل العزيز لا بد أن يقتضي مسوغا دلاليا يتجاوز حدود الفاصلة، ويتعدى مجرد التخفيف، أي أن القرآن العظيم لا يغير في اللفظة حتى تتوافق مع غيرها من الفواصل القرآنية دون أن يكون لها معنى آخر.

نستنبط مما سلف ذكره، أنّ السّامرائي يوازن بين المقام وبنية الكلمة، فمجيء الفعل نَبْغِي على زنة نَفْعِل على سبيل المثال لا الحصر، إنّما جاء على صورته الأصلية لأن المعنى في سياق الآية معروف جلي، فالطعام كان غايتهم وسببَ شدّهم الرحالَ إلى مصر؛ لما أصابهم من قحط وقلّة ذات اليد كما هو معلوم، فهذا مَرَدُّ مجيء الفعل كاملا مستوفيا حروفه كلّها.

8-الفرق بين تسألني وتسألن:

قال عز من قائل في سورة هود: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.[هود 46]. وقال جل شأنه في سورة الكهف: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف

70]، حذفت الياء في الآية الأولى في معرض الحديث عن قصة نوح عليه السلام وهو يتلطف في سؤال الله عز وجل عن ابنه، حيث قال ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾.

إلا أن الفعل نفسه ذكر في سورة الكهف مثبت الياء، في سياق حوار كليم الله عليه السلام مع العبد الصالح فقال﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِى﴾

ومآل ذلك وجِمَاعُه عند السامرائي السياق في القصّتين، فقد حذف الله عزّ وجلّ الياء من تسْألنِ في قصّة نوح، لأنّها في مقام تحذير لنوح عليه السلام، من أن يسأل الله أن ينجّي له ابنه.

بيد أنّ المقام في قصّة موسى عليه السلام والخضر مقام تفصيل؛ لما فيه من أعمال يستنكرها موسى عليه السلام. والخضر يبيّن له الحكمة منها " (السامرائي ف.، 2006)

إذن فإن توجيه الحذف الذي صاحب الفعل في قصة نوح عليه السلام هو مقام التحذير، وهذا المقام يقتضي الحذف ليكون أمارة على أن هذا السؤال ما كان ليكون من نوح عليه السلام لذا وعظه الجليل سبحانه من أن يأتي بفعل الجاهلين لأن السؤال الذي طلبه سيدنا نوح غيب لا علم له به، فالحذف أمارة على التقريع.

هذا ما جعل بعض المتأخرين يرى أنه" قد تحذف الياء في الكلمة إذا كان الفعل باطنا خفيا وهذا سبب مجيء الفعل في قصة نوح عليه السلام محذوف الياء، وإثباتها في قصة موسى عليه السلام لأنه سأله عن أشياء شاهدة كإغراق السفينة" (كامل، د.ت)

أما علة ذكر الياء في سورة الكهف فمقام التفصيل، لأن العبد الصالح كان يبين لموسى عليه السلام تلك الأعمال التي أنكرها واستشكلها لعدم علمه بها ابتداء، فلا يليق الحذف مع الجهل بالحكمة، فموسى عليه السلام ما كان يعلم الحكمة من تلك الأفعال، فبينها له الخضر عليه السلام وقام بتفصيلها، والتفصيل يناسبه الذكر لا الحذف والعكس بالعكس.

9-الفرق بين اطَّيرنا في قصّة ثمود التي وردت في سورة النمل وتطيرًّنا في قصة أصحاب القرية التي وردت في سورة يس:

جاء في سورة النمل في قصة ثمود قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل 47].

وقال سورة يس في معرض الحديث عن أصحاب القرية: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس 18].

ليس بخفي الفرق بين ٱطَّيَّرنَا وتَطَيَّرنَا؛ وسبب ذلك" أن التطير في النمل أشدّ منه في يس والسياق يبين ذلك؛ قالوا في يس: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، فهدّدوهم بالرّجم والتّعذيب.

أما في النمل فقد تعاهدوا وأقسموا على قتله وقتل أهله " (السامرائي ف.، 2006). إن صيغة تطيرنا التي ذكرت في يس تتسم بالخفة، مقارنة ب صيغة اطيرنا التي ذكرت في النمل، وهذا لا مراء فيه فالتاء حرف مهموس من حروف الاستفالة التي تتميز بالخفة والرقة، أما "اطيرنا" ففيها القوة من وجوه عدة أولها الإدغام وثانيها حرف الطاء فهو حرف مجهور من حروف الإطباق التي تتميز بالثقل والفخامة والشدة، فوافق التعبير بالشدة التهديد الشديد والوعيد الغليظ،كما وافق التهديد الأقل الصيغة الأخف.

فما أعظمه من توافق وما أعجبه من تطابق، تتدرّج فيه الصّيغة من القوي إلى الأقوى، بحسب المقام والسياق، فلما كان التّهديد رجما وتعذيبا جاء الفعل "تطيرّنا" ولما كان التّهديد أكبر، فيه قتلٌ له ولأهله وهذا يقتضي سورة غضب أكبر، حذف وأدغم فقال "اطّيرنا".

وهذه لطيفة أخرى ترسمها قواعد الصّرف في بوثقة القرآن، وتعزّز القول المشهور "كل زيادة في المبنى تؤدّي زيادة في المعنى".

10-الفرق بين نَزَّلَ في قصة هود وأَنْزَلَ في قصة يوسف:

قال تعالى في سورة الأعراف حكاية عن هود عليه السلام: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾[هود 71].

وقال في سورة يوسف ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠﴾.[يوسف 40].

ومعلوم أن الفعل في سورة الأعراف أقوى؛ وذلك لأن السورة زاخرة بالجدل والمراء والحوار والخصام المحتدم .

بيد أنها في سورة يوسف أخفّ؛ "لأن يوسف عليه السلام يعرض عقيدته برفق ولين فناسب ذلك أن يكون الفعل بالتّخفيف." (السامرائي ف.، 2006)

إن كلاًّ من الفعلين مزيد متعدّ، إلا أن التّعدية بالتّضعيف أقوى، فالشدّة تفوق الهمزة قوّة لهذا جاء الفعل على زنة فَعَّلَ في الأعراف تصديقا لمقام القوة والمراء فيها، وذلك لأن التضعيف فيه من القوة ما ليس في غيره من أحرف الزيادة ،يحسها المتكلم وهو يتلو آي الذكر الحكيم، وهذه عظمة القرآن فلا تضارب فيه ولا تناقض ولا اختلال، فإذا كان مقتضى حال تلك السورة هو الغضب أو الخصام أو غيرها من خصال القوة، فإنك تجد كل ما فيها يوائم بعضه بعضا، من كلمات تنم عن المراد وتوافق الجو العام للسورة، فلا تجد في كلام الله المعجز أن سورة يغلب عليها طابع الشدة إلا وألفيت الصيغ الصرفية تناسب ذلك المقام,

والأمر نفسه بالنسبة إلى أَنْزَلَ في قصة يوسف عليه السلام، التي جاء فيها الفعل متعدّيا بالهمزة موافقا مقام الترفق واللين،كون يوسف عليه السلام في معرض الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون سواه، وهذا الموقف يقتضي من الداعي إلى الله أن يلتزم الرفق والحكمة واللين،كي لا ينفر من يدعوه عن

دين الحق، فناسب كل تعبير مقامه، ووافقت كل صيغة سياقها الذي وردت فيه، فسبحان الذي جعل من البيان سحرا.

11-الخاتمة:

وفصل الخطاب في هذا الباب أن القرآن العظيم كتاب معجزة آياته، مبهر نظمه، فإذا أورد لفظة في موضع فهي فيه بمنزلة الشم من الجبال، لو حركتها أو غيرتها لتغيرت نواميس الكلام، ولأحدثت فيه اضطرابا، ثم إنه ليس بخفي ما للعربيّة وعلومها وما للغة الضّاد وقواعدها، من كبير فضل في تفسير آيات القرآن وتوجيهها، ومحاولة معرفة المراد منها، فهي اللّبنة التي على أساسها يشيد صرح التأويل، والدّليل على ذلك ما تبيّن في هذا المقال الذي نصل فيه إلى خاتمته التي نجملها في هذه:

- لا تتغيّر بنية اللّفظة القرآنية إلا وقد تغيّر المعنى، وليس فيه كلمة تتغيّر ويبقى معناها قارا، بل إن اختلاف المباني يقود إلى تغيّر المعاني.

- يعود سبب اختلاف بنية الكلمات في القرآن إلى المقام والسياق، فقد رأينا أن مقام التّفصيل تأتي فيه الكلمة مزيدة مستوفية كل أحرفها، وأن مقام الاقتضاب والإجمال يقابله الاقتطاع والحذف من الكلمة.

- لقواعد الصّرف أثر بالغ في بيان اختلاف بنية اللّفظة القرآنية، من ذلك الفرق في الدّلالة بين جمع التّكسير والجمع الصحيح، الذي ظهر جليا في قضيّة الفرق بين خطايا وخطيئات.

- خالف فاضل السامرائي الكثير من السّابقين، الذين رأوا أن اختلاف اللّفظة القرآنية، لا يؤثّر في المعنى إنما هو اختيار تعبيري يندرج تحت الثّراء التّعبيريّ ليس إلا.

- تبنى كثيرا من آراء المفسّرين السّابقين، فما يذكر من قول إلا ووثّقه أو نسبه إلى قائله.

- قدمّ قراءة جديدة لعلّة الاختلاف في الكلمة القرآنية، رغم أنّه لا يمكننا الجزم مطلقا أنه انفرد بآراء لم يسبق إليها، فكثيرا ما نستشفّ استنباطه الخاص، وبعبارة أوجز بصمة السامرائي في هذا الباب جليّة فهو لا يكتفي بالنقل عن، بل له إضافات تحسب له وله بها فضل الزّيادة.

- فصل الخطاب في هذا الباب أن السامرائي كان له اليد الطولى في استثمار قواعد العربيّة محفوفة بالمقام والسّياق العام في توجيهه لاختلاف بنية الكلمة في القرآن العظيم

12- قائمة المراجع:

1. أبو إسحاق الزجاج. (1988). معاني القرآن في إعرابه. بيروت: عالم الكتب.
2. أبو محمد البغوي. (1411). معالم التنزيل. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.
3. أبو هلال العسكري. (1984). المصون في الأدب. الكويت: مطبعة حكومة الكويت.
4. اسماعيل بن كثير. (1999). تفسير القرآن العظيم. د.م: دار طيبة للنشر والتوزيع.
5. الخطيب الإسكافي. (2001). درة التنزيل وغرة التأويل. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.
6. الطاهر ابن عاشور. (1984). التحرير و التنوير (المجلد 19). تونس: الدار التونسية للنشر.
7. الكرماني. (دت). أسرار التكرار في القرآن. دار فضيلة.
8. برهان الدين البقاعي. (1984). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
9. جار الله الزمخشري. (1407). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. بيروت: دار الكتاب العربي.
10. رضي الدين الاستراباذي. (1978). شرح الرضي على الكافية. جامعة قارينوس.
11. شعير عد المنعم كامل. (د.ت). الإعجاز القرآني في الرسم العثماني. د.م: د.د.
12. عبد الحميد الهنداوي. (2008). الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية. بيروت: المكتبة العصرية.
13. عبد الرحمان بن الأنباري. (2003). الإنصاق في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين. أبو البركات عبد الرحمان بن محمد بن الأنباري: المكتبة العصرية.
14. عبد الرحمان بن الجوزي. (1422). زاد المسير في علم التفسير. بيروت: دار الكتاب العربي.
15. فاضل السامرائي. (2002). التعبير القرآني. عمان: دار عمار.
16. فاضل صالح السامرائي. (2006). بلاغة الكلمة في التعبير القرآني. بغداد: شركة العاتك لصناعة الكتب.
17. محمد بن حمزة الكرماني. (د.ت). أسرار التكرار في القرآن. دار فضيلة.
18. محمد شملول. (2006). إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة. مصر: دار السلام.
19. نصر بن محمد السمرقندي. (1993). بحر العلوم. دار الكتب العلمية.
20. ينظر: فاضل السامرائي. (2002). التعبير القرآني. عمان: دار عمار.